قصيدة النثر... تحولات الكتابة

سلمان كاصد*

لا بد لي في البداية أن أخضع تجربتي في الكتابة النقدية حول قصيدة النثر لاستعراض مفهوم التحولات في الكتابة.

نحن نفترض أولاً أن مفهوم المحورين: العمودي والأفقي، الاستبدالي والتراكمي، صحيح. وأن المحور العمودي الساقط على المحور الأفقي ما هو إلا استعارة اختص بها الشعر. وأن المحور الأفقي التراكمي (الكورنولوجي) ما هو إلا كناية اختص بها النثر. وأن ما هو استعاري يمكن أن يتصف بالكنائية، وبذلك ينهض لدينا شعر نثري، أو القصيدة النثرية. وفي المقابل من ذلك فإن ما هو كنائي يمكن أن يتصف بالاستعارية، وبذلك أيضاً ينهض لدينا نثر شعري. هنا لم نخرج عن الإطار العام الذي اشتغل عليه (ياكوبسن) في تحديد نمطين من الكتابة الشعرية عندما يصبح النثر الموصوف بالكنائية شعراً، كونه احتواءً للاستعارة، وأن يصبح الشعر الموصوف بالاستعارية جزءاً من نمط نثري، كونه احتواءً للكنائية. ولكن متى يحصل ذلك للنمط الثاني؟

هناك -وفق ما أقرأه- محاولات سردية في

* باحث وناقد عراقي.

القصيدة الحديثة تجعلها تتحايث النثر في سرديته التعاقبيــة، أي أن ما هو ســردي يطغى على ما هو وصفي في كثير من أنماطهــا. وهو ما يحاول فيه الشــعراء الذين خرجوا من أردان قصيدة التفعيلة؛ إذ لم يستطع الكثير منهم أن يخلقوا نمطاً مستقلاً بذاتــه، إنما هو صورة ظلالية لقصيــدة التفعيلة. ذلــك النمط المهيمن الذي تشــم رائحته، بل تنظر إلى صورته الباهتة خلــف قصائدهم التي يدعون أنهــا نمط جديد في الكتابة الشــعرية، خرجوا به ليواجهوا العالم. إنهــا رؤية "كولدمانية" تمازج بين التغيرات السوسيولوجية للمجتمع العربي بخاصة، وبــين بناء القصيدة الذي بــدأ لديهم يأخذ منحى مشاكلاً لتلك التغيرات.

إن هــؤلاء فعلاً بــدأوا يأخذون علــى عاتقهم ممارســة طرح إشــكالية هذا العالم فــي المنظور الشــعري الذي يتمثلونــه. هذا مــع افتراضي أن شــعراء قصيدة النثــر لا يعني أنهم غيــر قادرين على اســتبصار ملامــح تجربة قصيــدة التفعيلة، فهم أساســاً جاءوا من أردانها، بــل بادعائهم من مخلفاتها، تلك المخلفــات التي وضعت المحرمات- أيضاً- أساساً لتكوينها، عندما تعاملت مع القصيدة العمودية السابقة عليها.

وهنا أصبح مبدأ التشــكيل والتساؤلات الملحة قانوناً ينفرد به شــعراء قصيدة النثر الذين أرادوا التحدث -علانية- بلا قوانين، ليحاكموا وجودهم العبثي المليء بالفوضى، خارج حدود الانضباط في المجتمعات المتماسكة، ما دام العالم يزخر بالمقاييس والأنظمة الإيقاعية التي تجعل أرواحهم عالقة في أســيجة نظمية قاســية تســتخف بوجودهم. لذا كان اللجوء إلى حريــة أو ديمقراطية التعبير أحد الأسباب وراء تحطيم تلك الأسيجة الحديدية التي كانــوا -هم- من روادها فــي نهضتها. وأقصد بها هنا قصيدة التفعيلة.

وكل ذلــك لا يعنــي عدم امتلاكهــم (أصحاب قصيدة النثر) مقومات الصياغة الأسلوبية الراقية للغــة، بل هم أعلــم بتشــكيلاتها وقوانينها؛ إلا أن خيالهم الشعري أقرب إلى التحرر من غيرهم. فبدأ همهم الأول والأخير هو البحث عن روح الشــعرية في ما هو مألوف في عالمهم اليومي والعادي. ولهذا الســبب كان ظهور الجيل الشعري الجديد مدعاة لإنقاذ أفق الشــعر من كل المحرمــات والممنوعات التي تستلب حرية التعبير، وكأن المجانية -بمفهوم برنار- هي الوقوف ضد نمطية الحياة، والانطلاق نحو آفاق أرحب وعوالم مضيئة.

صحيح أن الذائقة اســتعذبت الوزن الشــعري بوصفه قانوناً يوازي بل يتشاكل مع الإيقاع الحياتي العربي، إلا أن تعويد الذائقة تلك على نمط شعري مختلف سوف يكســبها ذائقة جديدة لا تقوم على موســيقى الإيقاع المتوارث، بل "تتأسس على إيقاع مــن نوع مغاير تماماً، تحدده تجاربنا ونظام حياتنا الذي يرتكــن إلى إيقــاع مختلف تماماً"، حســب أدونيس.

ولهــذا عُــدَّت اللغة لعبــة قصيــدة النثر، في انعطافاتها المتعددة، بسبب تنوع صورها وتلاقحها من ينابيع مختلفة، متباينة، بحيث بدت الصور فيها تتلاحق واحدة بعد الأخرى، في نســق جديد يبدو مليئــاً بالغموض، ذلك الغموض الذي يتمحور حول ســؤالنا الدائم: ما الذي يقصد الشاعر بقصيدته هذه؟

إن مــن أكبر معضلات قصيــدة النثر هو هذا الغياب في تأويل الخطاب. وكما يقول (المســدي): "إن ثمــة تعارضــاً بين الوظيفــة النحوية التي هي دلالــة وضوح، وبين دلالة النظــم في قصيدة النثر التي هي بنية غموض".

وفي ضوء ذلك تعد قراءة النص الشــعري نوعاً من أنــواع المجازفة العســيرة، ما دامــت تفترض رؤيتــين: الأولى تعنــي الوصول إلى آفــاق مــا أراده الشــاعر (إيجــاد المعنى)، والأخرى تدعي تحول قارئ النص إلى منتج لــه (إنتاج المعنى). ولهذا السبب تعددت الطرائق وهي في ســبيلها إلى البنى العميقة في قــاع قصيدة النثر لتخترق الشــكل اللغوي أو النســيج العنكبوتي الذي يوحي بهشاشة المظهر على السطح، فــي الوقت الذي تختبــئ خلفه كل تجارب الشــاعر الذهنية والثقافية والاجتماعية.

وفي ضوء ذلك فإن دراسة الظاهرة الخطية في الشكل تعد من العناصر المهمة في تبيان أهم سمة في قصيدة النثر، وهي: مدى توازن نسج القصيدة بما يعوض عن إيقاعية قصيدة التفعيلة. أي بمعنى آخر: هل أوجد الشــاعر في قصيــدة النثر نظاماً يعوض عن النظام الإيقاعي في قصيدة التفعيلة؟

أعتقــد أن الاختزال في قصيــدة النثر لا يعني فقــط اختصــار ألفاظها بمــا يعــادل التقليل من مســاحتها الفضائية؛ إذ الاختزال مرتهن بالصورة الشــعرية التــي تدفع الشــاعر إلى كيفيــة القول الشــعري، أي القدرة على مجانســة الصورة للغة الناقلة، فاللغة تشير إلى خصوصية القصيدة التي تستحيل مادة من سياقات غير مألوفة في توصيل رؤية الشاعر للعالم. فهي محيط الصورة، وسياجها المخادع.

ولهذا الســبب يبدو أن مطابقــة الاختزال في اللغــة، بوصفه شــكلاً جديداً في قصيــدة النثر، لمجــالات التكثيــف فــي الصورة، باعتباره براعة فــي اختــزال المعنى، لم يكن تركيباً غريباً -كما يدعــي البعــض- على المنتج الشــعري العربي؛ فالقصيــدة العربيــة حفلت بما هــو مدهش فــي التعبيــر عــن هذا التطابق. بيــد أننا نعلل ذلك بأن مــا ضيّع تلك الومضــات فــي قصائد الشــبان الذين قرأوا في ملتقى صنعاء الثاني للشــعراء الشباب هو الانبهار بالمفعول الســردي والخطابية العالية، التي تتوجه باتجــاه يمتلك فــي أغلب مفاصله رؤى سياســية مسقطة بقسرية وبتحريضية عالية.

> صحيح أن الذائقة استعذبت الوزن الشعري بوصفه قانوناً يوازي بل يتشاكل مع الإيقاع الحياتي العربي، إلا أن تعويد الذائقة تلك على نمط شعري مختلف سوف يكسبها ذائقة جديدة لا تقوم على موسيقى الإيقاع المتوارث

فنياً إن الانبهار بالمفعول السردي يغيّب الصورة أمام تراكم اللغة؛ وكأني بالشاعر قد تلبسته اللغة، فنســي الإحاطة بالصورة. وعليه يبدو أن الالتفات إلى تجانس مســاحة لغــة القصيدة مــع مكثفات الصورة فيها قد يحفز الشاعر إلى أن يكتشف عالماً هو أقرب إلى الإيماءة منه إلى التصريح، أو الشفرة

هـل أوجـد الشـاعر في قصـيدة النـثر نظامـاً يعوض عـن النظام الإيقاعـي في قصـيدة التفعيلة؟

فنيـاً إن الانبهار بالمفعول السردي يغيّب الصـورة أمـام تراكم اللغة؛ وكأني بالشـاعر قـد تلبسـته اللغـة، فنسـي الإحاطة بالصـورة

منه إلى الإفصاح.

أنا لا أفترض هنا أن محاولة الشباب لتأسيس جماليات جديدة في مواجهة كسر الذائقة الجمعية السائدة، وباسترضاء الحساسية النقدية التقليدية، غير مجدية، بـل العكس؛ إنها محاولـة رائعة في الوصول إلى الاكتفاء الذاتي دون الاتكاء على أبوية التقليد الشـعري، أو محاولتهم في كسر كاثوليكية الثنائي: الشكل والمضمون.

بات واضحاً أن قصيدة النثر تجربة قابلة للجدل، ما دامت قد واجهت ثنائية الشكل والمضمون، بسبب وعيها الحـاد وثقافة كُتّابها وإحساسـهم بضرورة التحول نحو أنمـاط مختلفة، نتيجة تحولات البنى الفكرية والاقتصادية للمكونات المجتمعية المعيشـة -في عالم صارت فيـه التقنيات المتوالدة تحاول- وباستمرار- كسر الشكل الواحد المهيمن، والمضمون الأحادي الموقف. لهذا نستشـهد بقول إليوت: "لقد صار الشعر إقلاقاً للوعي السائد".

بيـد أننا يجب ألا نفهم الإقـلاق هذا على أنه "ملصق" سياسـي أو لوحة خالية من المعنى، ما دام أحدهما يعارض الآخر: المعنى الكامل في "الملصق"، والخلو التام فـي المعنى من لوحات لغوية اعتمدت رؤى سـردية مغرقة في الذاتية. الصورة هي التي تخلق جمالية الذاتي، وليس الذاتي هو الذي يخلق جماليـة الصورة. ذلك ما أخفق فيـه الكثير ممن قـرأوا ضمن فعاليـات الملتقى، بالرغـم من تألق البعض الذي ابتعد عن الخطاب، فتألق في تركيب عوالمـه في تحـول جديد نحو نمط ثالث أسـميه "كنائية السـرد في القصيدة الشـابة" التي تكونت بفعل:

١- مؤثرات الميديا.

٢- تلاقح الأجناس الثقافية.

٣- التحول من الشفاهي إلى البصري.